الفصل الرابع
أهداف الاستشراق

تتلخص أهداف الاستشراق وأخطرها في الأمة الإسلامية تحويل المسلمين عن دينهم وتقطيع أوصال جماعتهم الإنسانية الكبرى وبثها إلى وحدات صغرى متقاطعة متنافرة ومتدابرة يقاتل بعضها بعضاً ويجافي بعضاً[1] واقع الحال شاهد على ما فعله الاستشراق في العالم الإسلامي إذ تعددت أسماء دول العالم الإسلامي وتعددت وحداته السياسية وقد كان دولة واحدة من طنجا غرباً إلى جاكرتا شرقاً. تقدر الأبحاث والكتب التي كتبها المستشرقون عن الإسلام في الفترة من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين بنحو ٦٠٠٠٠ ستين ألف كتاب فلم كل الاهتمام لم كل هذا العناء؟ ستون ألف بحث وكتاب في تاريخ الإسلام وعقائده ومذاهبه وفقهه وسيرة نبيه.. الخ لم كل هذا؟ إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى غايتين:

١- حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به ويحمل رايته ويجاهد في سبيله كما كان من المسيحيين في الشام ومصر والشمال الأفريقي وأسبانيا من قبل حين دخل الإسلام هذه الأصقاع فدخل أهلها في دين الله أفواجاً، وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف وحماته والمنافحين عنه. بل أعجب من ذلك أن دخلوا في العربية دخولاً غريباً وصار لسانهم لسانها، بل أعجب من

(١) المرجع نفسه ص٩٤.

ذلك أيضاً أن أخرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. كانت هذه غاية الاستشراق منذ نشأته محاولة لتبشيع صورة الإسلام وأهله حتى لا يتتابع من بقي من رعايا الكنيسة على الدخول في الإسلام مثلما فعل أضرابهم من أهل الشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس.

٢- الغاية الثانية للاستشراق هي معرفة الشرق ودراسة، أرضه ومياهه وطقسه، وجباله وأنهاره وزروعه وثماره وأهله ورجاله وعلمه وعلمائه ودينه، وعقائده وعاداته وتقاليده ولغاته.. كل ذلك لكي يعرف كيف يصل إلى الشرق. فقد ظلت دار الإسلام مرهوبة مخوفة، لم تستطيع الصليبية المقهورة أن تحاول - مجرد محاولة - اختراقها لعدة قرون وكانت المناوشات والاحتكاكات على الثغور والأطراف تحسم دائماً لصالح الإسلام والمسلمين ولما حاولت الصليبية الغاشمة اختراق ديار المسلمين في مطلع القرن السادس الهجري رجعت بعد نحو قرنين ٤٨٩-٦٩٠هـ من الزمان مقهورة مدحورة. "لكنها ما فتئت تدبر وتغدر وتحاول الالتفاف حول ديار الإسلام لما استعصى عليها اختراقها وكان الاستشراق هو رائدها الذي يرتاد لها الطريق.

كان المستشرقون جند المسيحية الشمالية الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهيب المحض الذي في قلب أوروبا والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام[١].

ولقد اعترف المستشرقون أنفسهم بأن هذه أهدافهم يقول الأمير كايتاني وهو إيطالي الجنسية وهو الذي جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لترتاد مناطق الفتح الإسلامي وترسمها جغرافياً وطبوغرافياً وجمع كل الدوريات والأخبار عن

(١) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص٧٣-٧٤.

حركة الفتح في اللغات القديمة.. واستخلص تاريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان (حوليات الإسلام) بلغ بها سنة أربعين هجرية قال هذا الأمير الذي استهلك كل ثروته الطائلة في هذه الأبحاث حتى أفلس تماماً، قال في مقدمة كتابه - حوليات الإسلام - هذه أنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون حتى اليوم يؤمنون بمحمد ويدينون به نبياً ورسولاً.

فهو بهذا يعلن عن هدفه بوضوح وصراحة (أن يفهم سر المصيبة الإسلامية) أي سر الإسلام ومصدر قوته. ويكتب المستشرق (باول شمتز) كتاباً يتناول فيه عناصر القوة الكامنة في العالم الإسلامي والإسلام. اسم الكتاب وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان (الإسلام قوة الغد العالمية) يعلن الكاتب عن هدفه وهو تبصير أوروبا الغافلة عن هذه القوة التي هي (صوت نذير لأوروبا وهتاف يجوب آفاقها، يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق، الذي بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه فهل يسمع أحد؟ هل من يجيب؟ والكتاب كله تحكمه هذه الروح روح الحقد والتأليب على الإسلام. نفس الكلام المتقدم يكرره المستشرق - البير شاميدور - في كتابه حمراء غرناطة بعد أن تحدث عن عظمة الآثار الإسلامية في غرناطة (إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع العالم في مائة عام كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضاً في مائة عام قد ترك لنا في حمراء غرناطة آثار علمه وفنه.. إن هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين، قد استيقظ وأخذ ينادي العالم (هاأنذا أعود إلى الحياة) فمن يدري قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية) ثم يقول لست أدعي النبوة، لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها. ثم ينادي أبيدوا أشباح العرب في الحمراء أبيدوها قبل أن تبعث.

والقوم بمثل هذا الكلام المتقدم يكشفون عن أهدافهم تجاه العالم الإسلامي والعربي. ويوضح ذلك قول (روجيه جارودي) ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي كان زعيم المذهب الوجودي والذي كان مرشحاً لزعامة الحزب الشيوعي

قال (لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ البداية إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية.

ومن المستشرقين من كان له أهداف علمية خالصة بنية الاستفادة من جوانب الإسلام المشرقة وهذه لا يقصد منها إلا البحث العلمي والتمحيص ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم وهذا الصنف قليل جداً، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الخطأ والاستنتاجات البعيدة عن الحق إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والدينية التي تفرق بين البيئة التاريخية التي يدرسونها وبين البيئة الخاصة التي يعيشونها.

وهذه الفئة هي أسلم الفئات وأقلها خطراً، إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يبين لهم ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في قلب البيئة التي يدرسها فيأتي منطبقاً مع الحق والصدق والواقع، ولكنهم يلقون عنتاً من أصحاب الأهداف الأخرى، إذ سرعان ما يتهمونهم بالانحراف عن المنهج العلمي والانسياق وراء العاطفة والرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم كما فعلوا مع (توماس أرنولد) حين أنصف المسلمين في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) وهذا يعتبر من أدق وأوثق مراجع المستشرقين في تاريخ التسامح الديني في الإسلام. يطعن المستشرقون المتعصبون - خاصة المبشرين منهم - بأن مؤلفه كان مندفعاً بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين مع أنه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها ومن هؤلاء أيضاً كما تقدم من يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه مثل المستشرق الفرنسي (رينيه) الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه وتسمى باسم (ناصر الدين رينيه) وكتب كتاباً اسمه (أشعة خاصة بنور الإسلام) بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله[١].

(١) عبد الكريم علي باز، افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، ص٢٣-٢٤.

المستشرقون هم أدمغة الحملات الحديثة وشياطين الغزو الثقافي للعالم الإسلامي ظهروا في حلبة الصراع في فترة كان المسلمون فيها يعانون من الإفلاس الحضاري والخواء الروحي وفقدان الذات مما جعل الفرصة سانحة لأولئك الأحبار والرهبان جنود الصليبية الموتورون كي يثأرون لهزائمهم الماضية وينفثوا أحقادهم الدفينة واقتضت خطة وجودهم في عصر يعبد العلم ويضفي عليه قداسة الوحي أن يخلعوا عن كواهلهم مسوح الرهبان والأحبار وسلاح الميدان وأن يرتدوا لباس العلم ومسوح المعرفة ثم جندوا آلاف المخطوطات ومئات المؤسسات الثقافية المختلفة لمعركة استئصال الإسلام وعكفوا في صوامع البحث يديرون الصراع المرير بخبث ودهاء. وما كان يغيب عن بالهم أن القضاء على الأشلاء الباقية من الكيان الإسلامي الضخم وسد كل الطرقات التي تهيئ لبعض الحياة فيها لا تتم إلا بسلب الأمة ذاكرتها متمثلة في تراثها العظيم وفي الوقت نفسه شن حرب نفسية شرسة لإبادة ما يزال عالقاً في أذهان المسلمين من عقائد الإسلام ومفهوماته وإن لم تكن الإبادة التامة فلتكن الزعزعة والتفتيت.